

تمهيد

إن رعاية طفل موهوب تشبه العيش في مدينة ترويحية مليئة بالألعاب الإثارة. فأنت تضحك أحياناً، "وأحياناً تلهث، وأحياناً تصرخ، وأحياناً تبتسم، وأحياناً تحملق عينيك بدهشة واستغراب. وأحياناً تتسمّر في مقعدك، وأحياناً تشعر بالفخر. وفي أحيان أخرى تكون إحدى الألعاب مرهقة للأعصاب، لدرجة لا تملك معها إلا أن تبكي".

- كارول ستريب وغريتشن هيرش - Carol Strip & Gretchen Hirsch
مؤلفتان وخبيرتان في تربية الأطفال الموهوبين.

أن يكون المرء والدًا لطفل موهوب خبرة مليئة بالضحك والسرور. فهؤلاء الأطفال مثيرون للمتعة والبهجة، مما يجعلنا نشعر بسرور حقيقي ونحن نشاهدهم وهم يفعلون أموراً تأخذ بالألباب. لكن كثيراً من الوالدين أو أولياء الأمور في مجتمعاتنا، من جهة أخرى، يشعرون بالقلق، أو حتى بالخوف، عند مجرد التفكير في أن طفلهم ذكي جداً أو سريع التعلم أو موهوب. وقد تكون أحاسيسهم متضاربة، لأنهم سوف يحسّون بشيء من الفخر لأن طفلهم موهوب بعقل سريع الفهم، ولكنهم من جهة أخرى يشعرون بالقلق لأنهم سوف يتحملون تبعاً لذلك مسؤوليات جديدة ومختلفة لكي يتمكنوا من تربية هذا الطفل بطريقة تنمي قدراته إلى أقصى حدّ ممكن لها. وقد يحاول بعضهم أن يتنكر لموهبة طفله أو يقلل من شأنها في محاولة لجعل الطفل يبدو عادياً كأن يقول: «حسناً، إنه فعلاً ذكي ومتقدم على أقرانه، لكنني لا أظن أنه موهوب حقاً». إنه يشبه الأطفال الآخرين في الأمور الأخرى كلها.

إن الشعور بعدم اليقين وبالتناقض الظاهري في مشاعر أولياء الأمور يعود غالباً إلى غموض معنى «الموهبة» عندهم. فقد لا يكونون قد سمعوا بمصطلح «موهوب» إطلاقاً، وإن كانوا قد سمعوا به فقد يظنون خطأ أن الطفل الموهوب يجب أن يكون عبقرياً أو طفلاً معجزة، أو أنه على الأقل طفل يفوق رفاق عمره في المجالات كافة. فمثلاً، إذا كان الطفل متقدماً في مجال واحد أو مجالين فقط، فقد لا يعرفون أنه ما زال يعدّ طفلاً موهوباً.

وهناك عامل آخر يؤدي إلى التباس فهم الموهبة لدى أولياء الأمور، وهو أنهم غالباً ما يسمعون من المعلمين والإداريين في المدرسة عبارات مثل «في مدرستنا، نؤمن أن الأطفال كلهم موهوبون»، أو «نحن نعتقد أن الأطفال كلهم قادرين على التعلم»؛ وهم يعنون بذلك أن الأطفال كلهم قادرين على تعلم أي شيء تقريباً، إذا توفرت لهم المصادر الضرورية والوقت والتشجيع المناسبين. إن مثل هذه التعليقات ليست مضللة فحسب، وإنما هي أيضاً غير دقيقة. ففي الولايات المتحدة، تحاول السياسات التربوية على مستوى الدولة وعلى مستوى الولايات أن تضمن أن يكون تعلم الطلاب عند المستويات الدنيا على الأقل من معايير الصفوف الدراسية لا سيّما القراءة والرياضيات، ولكن الواقع يؤكد أن بعض الأطفال يواجهون صعوبة حتى في تحقيق هذه الحدود الدنيا، على حين يتمكن الأطفال الموهوبون، إن لم يكونوا من ذوي صعوبات التعلم، من إتقان الحدود الدنيا لمعايير صفيين أو ثلاثة صفوف دراسية أعلى مما يتقنه زملاؤهم الذين في العمر نفسه.

والسؤال هنا هو: هل يشبه الأطفال الموهوبون سائر الأطفال الآخرين؟ أجل. إنهم مثلهم في كثير من الجوانب، فهم، مثل الأطفال جميعهم بحاجة إلى الأصدقاء، ويستمتعون باللعب بالدمى، ويحبون عائلاتهم، ويحبون أن يتعلموا مهارات جديدة. لكن من الواضح أن بعض الأطفال يتعلمون أسرع من غيرهم. فبعض الأطفال الصغار يكتشفون كيف يقرؤون ويقومون بعمليات الجمع قبل دخول الروضة، ويتعلمون هذه المهارات بأنفسهم، دون أن يوضحها أحد لهم. لكن تعلمهم السريع قد يضعهم أمام مشكلات حقيقية في المدرسة، لأن المعلمين يجدون أن من الأسهل «التعامل مع الطلاب جميعاً»، ويرغبون في أن «ينتظر الأطفال الموهوبون حتى يلحق بهم الطلاب الآخرون». ويحتاج معظم الأطفال إلى قدر من التكرار والممارسة حتى يتعلموا مهارة جديدة في المدرسة. لذا، فإن الطفل الموهوب سريع التعلم الذي لا يحتاج إلى التكرار لإتقان المهارة قد يشعر بالإحباط إلى درجة أنه قد لا يحب المدرسة أو قد يكرهها إن لم يجد فيها شيئاً جديداً أو مثيراً يتعلمه.

يحتاج الأطفال جميعهم إلى توجيه وتشجيع من الراشدين لكي يطوروا إمكاناتهم. فالأطفال ذوو القدرات الرياضية العالية يُشجَّعون على تطوير هذه القدرات من خلال التدريبات والمشاركة في الفرق والنوادي الرياضية؛ كما يُشجَّع الأطفال ذوو القدرات الموسيقية على تلقي دروس في الموسيقى أو على الانضمام إلى الفرق الموسيقية. ويقال الشيء نفسه عن الأطفال ذوي الإمكانيات الأكاديمية العالية، وكذلك الحال مع الأطفال ذوي القدرات العقلية أو الإبداعية أو الفنية، فهم بحاجة إلى فرص لتطوير مجالات مواهبهم المختلفة. لكن المدارس، لسوء الحظ ولأسباب عديدة، نادراً ما تقدم للأطفال أكثر من المنهاج الأكاديمي المعتمد - الذي يتوفر فيه قدر من التحدي لبعض الأطفال، ولكنه يخلو من التحدي للمتعلمين المتقدمين.

يعتقد بعض المربين أن الأطفال الأذكياء لا يحتاجون إلى مساعدة خاصة؛ فهم، في نهاية المطاف، يمتلكون كثيراً من الجوانب الإيجابية التي تساندهم^١. حقيقة الأمر هي أن الحاجات التربوية للأطفال الموهوبين تبرز مباشرة من جوانب قوتهم. فهم، بسبب سرعتهم وتميزهم في التعلم، في أمس الحاجة إلى فرص تعليمية خاصة بهم. إنهم أطفال غير عاديين، وعليه فإنهم بحاجة إلى خدمات غير عادية تماماً كالأطفال من ذوي صعوبات التعلم الذين هم بحاجة إلى خدمات خاصة واهتمام خاص بهم.

يتردد آباء الأطفال الموهوبين أحياناً قبل أن يُقرروا بأن طفلهم، الذي يتعلم دون بذل مجهود يذكر، قد يحتاج إلى مساعدة أو دعم إضافيين. وحتى عندما تتوفر المناهج والبرامج الإضافية الخاصة بالأطفال الموهوبين في مدرسة ما، فإن الآباء يترددون في طلب تسهيلات تربوية تتناسب مع قدرات طفلهم الموهوب. وقد يتردد بعضهم لشعورهم بالذنب، قائلين في أنفسهم: "حتمًا هناك آخرون يحتاجون إلى المساعدة أكثر من طفلنا". لكن من المهم أن يعدل المربون والآباء معاً المنهاج لجعله أكثر ملاءمة لاستعدادات الطفل ومساعدته على التقدم إلى الأمام بدلاً من "الجمود في مكانه".

يحتاج الأطفال الموهوبون إلى توجيه ودعم أكاديميين في مجالات موهبتهم، كما يحتاجون إلى دعم في المجالات الاجتماعية والانفعالية. فهم يحتاجون، كسائر الأطفال، إلى أصدقاء وتقبل من الآخرين. ومع ذلك فقد يعانون من صعوبات في التعامل مع الآخرين؛ لأن اختلافهم يؤدي إلى صعوبة

إمكانية عثورهم على أصدقاء. فقد يفقدون صبرهم مع الأطفال بطيئي الفهم، وقد يجدون أنفسهم منبوذين من هؤلاء الأطفال أنفسهم، لأنهم يفعلون أشياء لا يكتث لها الآخرون كثيراً. ويمكن للوالدين والمعلمين أن يساعدوا الأطفال على فهم هذه الفروق ومعرفه أن الفروق بين الناس تُثري العالم الذي يعيشون فيه.

لا شك في أن الكثيرين من القراء يعلمون سلفاً أن تربية أطفال موهوبين يمكن أن تكون تحدياً كبيراً. فقد قالت إحدى الأمهات في سخرية واضحة من الفكرة، "ابني مصاب بالموهبة"^٢. فما العمل إذا ما وجد أحدنا نفسه في هذا الوضع؟ افرض أن لديك طفلاً موهوباً يعيش في بيتك. فهذا يعني أنه سوف يصبح، بعد أن يكبر، عضواً مضمئناً، ومسئولاً ومشاركاً في المجتمع ومقدراً فيه، أليس كذلك؟ ومن المتوقع أن يتبوأ منزلة اجتماعية رفيعة المستوى، كأن يصبح طبيباً أو محامياً مرموقاً، أو ربما يخترع أشياء في مجال العلوم أو يؤلف ديواناً شعرياً أكثر مبيعاً، أو حتى ربما يصبح رئيساً للدولة! فهل يحدث ذلك فعلاً؟ ليس بالضرورة. فبعض الأطفال الموهوبين ذوي الإمكانيات العالية لا يحققون تلك التوقعات^٣، فهناك عوامل أخرى قد تنف في طريقهم، وهي على الأغلب عوامل اجتماعية وانفعالية. فلماذا يحدث ذلك؟ إن الأسباب كثيرة ومعقدة.

ومن هذه الأسباب أن هناك مشاعر متضاربة حول الأطفال الموهوبين في مدارسنا ومجتمعاتنا، فهم غالباً ما يتعرضون للنقد بسبب الخصائص التي تجعلهم متميزين عن غيرهم (كالحساسية، والتركيز، وغيرهما). كما أنهم دائماً يسمعون في المدرسة وفي المنزل عبارات مثل: «أنت شديد الحساسية! أنت شديد التوتر! روح الدعابة غريبة عنك! هل تحتاج إلى أن تكون دوماً مبدعاً؟ لماذا تشعر بأن عليك أن تشكك في القوانين كلها؟» إن ما سبق يجعلنا نتساءل: ما الذي يفهمه الطفل من هذه الانتقادات؟ إنه قد يصدّق هذه الرسائل فيقرر أن هناك خطأ ما في شخصيته.

ومن ناحية أخرى يبدو التناقض واضحاً بين أقوالنا وأفعالنا، فنحن نقول إننا نقدر قدرات هؤلاء الأطفال؛ ولكننا في الوقت ذاته نزعج عندما يعكرون صفو المعايير السائدة. إنهم مختلفون على نحو غير مريح لنا، ونتمنى أحياناً لو أنهم كانوا ملتزمين بالمعايير الاجتماعية «العادية». فمثلاً، قد تلاحظ إحدى الأمهات أن طفلها الذي يبلغ عامين من العمر يقوم بأفعال تحددها الكتب المتخصصة برعاية الأطفال لذوي الأعمار الكبيرة، كأطفال السنة الرابعة أو الخامسة أو حتى السادسة. إن مثل هذا الطفل يكون استثنائياً ولا يتلاءم مع المعايير المعروفة. والآن، ماذا على الأم أن تفعل بهذه المعلومات؟ فلو أنها طلبت المساعدة من المربين، فمن الممكن أن يقولوا «إن طفلك طفل يظل لها قبل كل شيء، والموهبة أمر ثانوي وتمثل جزءاً منه فقط». لكن الموهبة شيء متجذّر في هذا الطفل وتؤثر في كل ما يفكر فيه أو يشعر به أو يقوله أو يفعله. إنها مفتاح شخصيته ولا يجوز أن نحدها ونتعامل معها فقط عندما لا تكون مريحة للآخرين. وعلينا أن ندرك أنه لا يمكن تجاهل الموهبة أو التقليل من شأنها؛ فالأطفال الموهوبون مختلفون جذرياً عن غيرهم. فهم بوصفهم مجموعة، يبلغون المراحل النمائية في وقت مبكر من أعمارهم - وأحياناً يكون ذلك في وقت مبكر أكثر من غيرهم من الأطفال^٤، وهم يعالجون الأفكار المجردة قبل الأطفال الآخرين^٥، وهم يستجيبون للمثيرات بحساسية أكثر من غيرهم^٦.

ويمكن النظر إلى هذه المسألة بطريقة أخرى. فالطفل الذي تزيد نسبة ذكائه ٤٥ نقطة عن المعدل (١٤٥) يكون مخالفاً للمتوسط العادي (١٠٠) تماماً مثل الطفل الذي تقل نسبة ذكائه ٤٥ نقطة عن المعدل (٥٥). فقليل من المربين أو أطباء الأطفال أو علماء النفس يمكن أن ينصحوا الوالدين أن يتعاملوا مع طفل تبلغ نسبة ذكائه ٥٥ على أنه طفل أولاً وقبل كل شيء، ثم ينظرون إليه أحياناً على أنه متخلف عقلياً. أما بالنسبة للأطفال الذين تبلغ نسبة ذكائهم ١٤٥ فإن قدرتهم العقلية - الدماغ الذي يحركهم - أساسية جداً في كل شيء يخصهم لدرجة لا يمكن معها فصلها عن شخصية ذلك الطفل. وكلما زادت نسبة ذكائه، انطبق هذا المبدأ عليه أكثر من غيره^١. ولكي نساعد الأطفال الموهوبين وندعمهم، علينا أولاً أن نعرف أنهم فعلاً مختلفون عن غيرهم. ثم علينا أن نفهم طبيعة الاختلاف، لأنهم جميعاً ليسوا سواء. وأخيراً، علينا أن نوجههم ونرشدهم، بوصفنا الراشدين المهمين في حياتهم، ليس فقط في جهودهم الأكاديمية، وإنما في المهارات الاجتماعية والانفعالية ومهارات تطوير الذات. إن تفرد الطفل واختلافه عن غيره من جهة، وحاجته إلى الانتماء إلى مجموعة من الأقران وإلى المجتمع من جهة أخرى، يمكن أن تكون مهمة صعبة. وقد وصف أحد المراهقين الموهوبين هذا التحدي على النحو الآتي:

”الموهبة والنبوغ“ ليساً أمراً يمكنك حمله معك في وقت فراغك في نهاية الأسبوع. بل هما أمر سيؤثر في كل شيء يتعلق بحياتك، على مدار ٢٤ ساعة يومياً و ٣٦٥ يوماً و ١/٤ اليوم سنوياً. إنه أمر يجبرك على أن تتضح قبل أن تكون مستعداً لذلك؛ إنه أمر يمكن أن يسبب لك كل أنواع الإزعاج ويتركك ممرقاً.“

ويعدّ تحقيق التوازن بين الالتزام بالمعايير وتبني مسار خاص مهمة صعبة حقاً بالنسبة للأطفال الموهوبين؛ لأن التوازن الخاص بكل طفل سيكون مختلفاً عن غيره. وكل مسار ستكون له صعوباته وتكاليفه. ولا شك في أن فهم هذه التكاليف أساسي لفهم الذات، وتحقيق الذات في نهاية المطاف. ونحن نأمل أن يساعدك هذا الكتاب على فهم طفلك الموهوب ودعمه بالطرق كافة - أكاديمياً، واجتماعياً، وانفعالياً.